الحركة الفكرية
في العصور الحديثة

للأستاذ رفيق التميمي

١ — الحركة الأدبية :

لقد ظهر في أوائل القرن السابع عشر ثلاثة من كبار الأدباء كانوا النجم اللامع في سماء الأدب العالمي الأوربي وهم شكسبير وسرفنتس ، ولوب دي فيغا . والأول شاعر الانكليز الأشهر . أما الثاني والثالث فقد ظهرا في أسبانيا

والحركة الأدبية في فرنسا لم تتبوأ مكانتها الرفيعة إلا اعتباراً من انتهاء الثلث الأول من القرن السابع عشر .

لقد ظهر في انكلترا خلال القرن السابع عشر رجلان عظيمان هما شكسبير وملتن . أما شكسبير فقد تبوأ مكانته الأدبية الرفيعة في عصر الملكة اليصابات ، وظل يغذي الأدب الانكليزي بآثاره الخالدة في أيام الملك جيمس الأول . ويقول أساتذة الأدب العالمي إنه ليس بين الشعراء المتقدمين والمتأخرين من أبرز مثله معارف واسعة في جميع أدوار الحياة وأطوارها ، ولا أبدى سواه مثل اطلاعه على ظواهرها وأسرارها ؛ فقد كتب في موضوعات يدخل فيها كل وجه من وجوهها ، وبحث في كل مطلب من مطالبها ، وكان في جميع هذه الأبحاث أستاذاً كبيراً وحكيماً وخبيراً حتى يكاد الناس اليوم لا يعمدون إلى درس موضوع منها ما لم يساقوا بطبيعة الحال إلى درسه في مخلفات شكسبير ، فهو كراوية لا مضارع له ، أما كشاعر فلا يذكر بجانب اسمه إلا واحد أو اثنان ، وكفيلسوف حكيم لا تكاد تفكر في معضلة حيوية إلا تراه قد طرقها وحلها ، ولا تطلب مطلباً إلا تجده بين كنوزه التي لا تحصى ولا تثمن .

والألمان أول من ترجم شكسبير إلى لغة أجنبية وقام نقاد كبار منهم يوضحون مراياه الرائعة ومراميه السامية حتى انفتحت أعين العالم على معينه الفياض فأخذوا يغترفون منه ما لذ وطاب ؛ وهكذا تحول أعظم شاعر في انكلترة إلى أعظم شاعر في العالم كما يقول علماء الأدب .

ولشكسبير آثار خالدة : منها الزوبعة وحلم ليلة في منتصف الصيف ومكبث وروميو وجوليت وهملت وتاجر البندقية والبطل وقد ترجمت هذه الكتب باللغة العربية .

وظهر في أيام الملك شارل الثاني شاعر كبير هو ملتن ، وقد كان على المذهب البيوريتاني وألف باللاتينية بعد إعدام الملك شارل الأول كتاباً دافع فيه عن العدالة في قتل الملك . فلما عاد آل استوارت إلى عرش انكلترا اضطر ملتن إلى أن يعتزل العالم أربع عشرة سنة ، وفي خلال ذلك وضع في عزلته وعماه قصائده الخالدات الإثنتي عشرة وهي التي سماها الفردوس المفقود والفردوس المردود .

ونبغ في أيام ملتن أديب بيوريتاني آخر هو بونيان كان سجن بعد عودة آل استوارت اثنتي عشرة سنة لأنه لم يكن على المذهب الانجليكاني ، وفي وحشة سجنه وضع كتاباً سماه (سياحة المسيحي) وهو من أعجب الرمزيا ـ في الأدب الانكليزي .

وفي خلال القرن الثامن عشر ازداد عدد الكتاب والشعراء والروائيين والمؤرخين . ولا شك أن لظهور طائفة من أمهات الجرائد والمجلات الانكليزية حينئذ علاقة كبرى بذلك الازدهار الأدبي والعلمي نذكر هنا على سبيل المثال (أدباء البحيرات) الذين خلدوا جمال الطبيعة في أشعارهم ، والروائي الذائع الصيت (ولتر اسكوت) وبه يبدأ الدور الإبداعي في الأدب الانكليزي ، وجون كيتس ، والمؤرخ أدوردجيبن . وظهر في ألمانيا خلال القرن الثامن عشر الكاتب الكلاسيكي (كلوبستوك) ، والأديب (وايلند) والروائي (لسينغ) و (هردر) ، وكان هؤلاء الأدباء ينقلون عن الأدب الفرنسي ويقلدون المؤلفين فيه .

وفي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر نشأ في ألمانيا طراز جديد للتأليف بفضل أدباء عظام يأتي في مقدمتهم لسينغ ، وغوته ، وشيلر . وقد وضع هؤلاء منهاجاً جديداً يختلف عن المنهاج الكلاسيكي الذي كان شائعاً آنئذ في فرنسا ، وسمي هذا الدور في الأدب الألماني بدور العاصفة أو الهجوم .

لقد اتجهت عناية هؤلاء الأدباء الكبار إلى تحسين أداء

المعانى التى تثير العواطف دون الالتفات إلى إرضاء الناس بإجادة معانى الكلام وتنميق العبارات ، وفى خلال هذه الحركة الأدبية الجديدة بات الكتاب والشعراء والأدباء ينطقون بما توحيه إليهم أفكارهم ومشاعرهم وينتقون من الحوادث اليومية مواضيع لكتاباتهم . فاذا اختاروا حادثاً قديماً فانهم يجعلون رجاله من بين الألمان القدماء المعاصرين أمثال وليم تل وولنشتين، وقد انصرف همهم إلى أن يكتبوا بلغة يفهمها الناس ويألفها القراء ، وبذلك أصبحوا يخاطبون سواد الشعب ولا يعنون بأبناء الطبقة الممتازة .

وكان نابوليون وصف غوته ، أحد رجال المذهب الأدبى المتقدم ذكره ، بأنه رجل ، وهو فى الحقيقة رجل عبقرى استطاع أن يستغل مواهبه الرفيعة ، وأن يسمو فى أعماله وأدبه إلى الذروة ، ويطلق العنان لتفكيره فيذهب فى مختلف الشعاب ، ويبلغ به أقصى الأغراض . وامتاز غوته بعقله الخصب وإحساسه المتقد وخياله الخصب الواسع ، وكان يستوحى من حياته الطويلة التى كادت تمتد إلى قرن كامل كل العظات الجسام التى حفلت بها ، ويستخلص من حوادثها دروساً جليلة فى الفن والأدب والفلسفة والاجتماع ، ومن آثاره الخالدة « فاوست » و « آلام فرتر ».

وظهر فى فرنسا خلال القرن السابع عشر من الكتاب والروائيين العظام (كورناى) و (ديكارت) واضع الفلسفة الحديثة و (بسكال) المعجزة فى الرياضيات ، وعدو اليسوعيين . وظهر فى النصف الأخير من القرن المذكور الروائى الكبير (موليار) والشاعر (بوالو) والروائى العظيم (راشيل) وواضع الأمثال الشعرية الخلابة (لافونتين) ، و (بوسويه) الواعظ ببلاط الملك لويس الرابع عشر ، و(لابروبار) الروائى والوصاف للأخلاق والآداب المعاصرة ، و(فنلون) الأسقف والكاتب . ولقد اتصف هؤلاء الكتاب والأدباء والشعراء بمعرفتهم التامة لنوابغ اليونان والرومان وبتقليدهم إياهم فى جميع آثارهم الخالدة التى ازدان بها الأدب الفرنسى الحديث .

وفى بدء القرن التاسع عشر أخذت مبادىء الحركة الأدبية الجديدة تنتشر فى ألمانيا على يد كبار الأدباء وفى مقدمتهم غوته ، وشيلر ، ولسينغ ، وسميت تلك الحركة بالمذهب الابداعى (الرومانيتك) ، ومع أن هذا المذهب كان دون المذهب الكلاسيكى كمالا فان الألمان وجدوه أنسب بالأنجاب ، وأكثر تأثيراً فى المواطف وأقرب إلى طبيعة القارئ واستقبلوه بالإعجاب والتقدير.

وما لبث المذهب الأدبى الجديد أن انتشرت مبادئه وقواعده فى سائر البلاد الأوربية وبات البيان الألمانى نموذجا لكتاب أوربا منذ بداءة القرن التاسع عشر . وقد رفع لواء المذهب الابداعى الجديد فى ألمانيا كل من شليكل ، وتيك ، وبرنتانو وهوفمان ، وحينما كانت ألمانيا ترزح تحت السيطرة الفرنسية أيام عظمة نابليون ألف فريق من الشباب المتحمسين جمعية (ألمانيا الفتاة) وأخذوا ينشرون مبادئهم القويمة بمختلف الطرق وينبهون بنى قومهم إلى وجوب تخليص وطنهم من الحكم الأجنبى، ودعم هذه الحركة الوطنية فريق من الأدباء والشعراء ووضعوا لذلك مؤلفات قيمة ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء من الأدباء : (غوتزكو) و (لوبه) و (بورن) و (هنرى هين) و (شنكندورف).

وفى أواخر القرن الثامن عشر دخلت مبادئ المذهب الابداعى إلى إنكلترا غير أنها لم تكن فى بادىء الأمر إلا عبارة عن (بدعة مخالفة للشعر المألوف) كما كانوا يقولون عنها . فحاول بعض الشعراء نظم القصائد والأشعار باللغة العامية وأحيوا ما كاد يندرس من قصائد العصور المتوسطة .

وظهر فى الربع الأول من القرن التاسع عشر الشاعران الغنائيان (بايرون ، وشيلى) الاريستقراطيان وأضافا إلى الأدب الانكليزى صفحات خالدة من الشعر الرقيق ، ومات الاثنان فى سن الشباب . وذهب الأول ضحية الحمى فى مدينة (ميسولونكى) حين ذهب إليها ليشارك الثوار اليونان فى ثورتهم ضد الدولة العثمانية ، وكان بايرون لا يبحث فى شعره إلا عن نفسه ، وقد فصل فيه مغامراته وآلامه وملذاته وغرامه وحقده وشدة شغفه بالابتعاد عن الناس وضجره من الحياة ، واحتقر بوقاحة أبناء الطبقة البورجوازية .

وامتاز الكاتب الكبير (ولتر سكوت) بروايات التاريخية التى نالت إعجاب الجمهور وتقديره . أما (تشارلز ديكنز) فلم يعن بالحوادث التاريخية فى رواياته بل انصرف بكليته إلى وصف الظروف والبيئة الاجتماعية التى وقعت قصصه فيها فجاءت كتبه مرآة صافية انعكست فيها أخلاق القوم وميولهم وعاداتهم . وبرع الكاتب الفكه (ثكرى) فى دقة الوصف وقوة التعبير فى كتابيه : أغنياء الجيل ، ومعرض الأباطيل

وامتاز النصف الثانى من القرن التاسع عشر بوفرة الانتاج الأدبى واتصاله الوثيق بالفنون الجميلة ، وظهر من الأدباء والشعراء فى انكلترا من كان له باع طويل فى الرسم والنحت مثل : روسّتى الرسام ، ووليم موريس النقاش ، وجون رسكين الذى مثل عصره خير تمثيل بكتاباته التى تزخر بحماسة غير مفتعلة ، وبلاغة ساحرة ، وامتاز رسكين بتفكير سليم مكنه من أن يتناول أعقد الأمور وأخطر المواضيع فى الأخلاق والاجتماع ، ويناقشها بسهولة عجيبة ، وقد اشتهر أسلوبه بالبهجة والرشاقة رغم طول الجملة فى كتاباته وتزاحم الأدلة والبراهين فيها ، وقد كان لرسكين أعمق الأثر فى ترقية الفنون الجميلة وتنسيق الجهود الرامية إلى تدعيم الأخلاق وتقويتها .

وخلف راسكين فى ترقية الفنون والآداب فى انكلترة طائفة من الشعراء والفلاسفة والرسامين وكتاب القصص ومنهم (سويدبث) و (رديارد كبلينغ) و (أتش . جي . ويلز) ، وامتاز سويدبث بدقة الملاحظة وإتقان التحليل النفسى؛ أما كبلينغ فقد سجل فى كتبه عظمة الشعب البريطانى وقوة تفكيره ، ومتانة خلقه وسلامة ذوقه . ورمى ويلز بمؤلفاته المختلفة الأدبية والاجتماعية إلى وجوب القيام باصلاحات عميقة فى حياة الأمم الاجتماعية والسياسية .

وأشهر من ألف روايات تمثيلية (اسكار وايلد) و (برناردشو) . وانصرف وايلد إلى وضع روايات هزلية امتازت بشدة الحوار والتعمق فى البحث والنقد إلا أنه أغضب طائفة كبيرة من الشعب بنقده اللاذع وهجوه . أما برنارد شو الإيرلندى الاشتراكى المتطرف فقد أدخل إلى مسارح انكلترا روايات هزلية ذات طابع خاص فلسفى ، وانصرف بكليته إلى نقد المجتمع المعاصر نقداً لاذعاً وإلى وصف النواحى العوجاء فيه وصفاً مؤثراً طالب فيه بوجوب القيام باصلاح اجتماعى عاجل . وتحمل كتبه كلها طابعاً اشتراكياً متطرفاً .

وفى خلال القرن الثامن عشر ظهر فى فرنسا عدد من الكتاب البارعين سموا أنفسهم فلاسفة على أنهم لم يبدوا رأياً جديداً فى القضايا التى كانت محط نظر رجال الفلاسفة وإنما صوبوا أنظارهم إلى المسائل العلمية فدرسوا العقائد والسنن القائمة فى عصرهم . وكانوا إذا ظهر لهم منها ما يخالف العقل طفقوا يحملون عليها بأقلامهم ويفضحون معايبها . فهم والحالة هذه كانوا منشئين أكثر منهم فلاسفة .

وكانت الهيئة الاجتماعية يومئذ فى بلاد أوربا قائمة على دعائم متشابهة هى السلطة المطلقة للحكومة ، وكان الشعب قد اعتاد على الطاعة للملوك ، وكانوا يقولون إن سلطة الملك مستمدة من الله تعالى فللملك حق الحكم وعلى شعبه واجب الطاعة . وهكذا كان شأن المؤمنين مع الكنيسة سواء أكانوا فى البلاد البروتستنتية أم الكاثوليكية ؛ فلقد كان من حقوق الكهنة تقرير العقائد الواجب اتباعها وتعيين الاحتفالات وكانوا لا يطيقون أن يكون فى الدولة الواحدة أكثر من مذهب واحد ، وكانت الكنيسة تتعاون مع حكومة الملك المستبد فى تنفيذ المبادىء المتقدم ذكرها فكانت الحكومة تقتص من الهراطقة ، وتوجب على الشعب إطاعة الكنيسة ، وقد جعل الكهنة مقابل ذلك إطاعة الملك فرضاً دينياً لا يجوز إغفاله .

وقام فريقان من الفلاسفة المصلحين فى فرنسا : الأول فى النصف الأول من القرن الثامن عشر وقوامه فولتير ومنتسكيو ، والجيل الثانى فى النصف الأخير من ذلك القرن وقوامه جان جاك روسو ، ودريدرو ، وجماعة العلماء المعروفين برجال الموسوعة .

أما منتسكيو وفولتير : فكلاهما من أهل الطبقة العليا ، وكان فولتير عدو الأديان الموضوعة ولا يعترف إلا بالدين الطبيعى القائل بوجود الله وخلود النفس . وقد بشر بالتساهل ودافع عنه فى جميع كتبه وطالب بديانة خالية من العقائد والرموز والأسرار ، ومقتصرة على تعاليم أدبية واجتماعية شعبية ، وقلما خاض فولتير فى مسائل الحكومة ، وكان تلاميذه الكثيرون يبتعدون عن السياسة ويكتفون بمهاجمة الكهنة وأنظمة الكنيسة تحت عنوان العقل أو الانسانية .

أما منتسكيو فقد وضع مبدأ توزيع السلطات وهى التشريعية والقضائية والتنفيذية وحض على فصل هذه السلطات بعضها عن بعض ليتسنى للشعب حكومة عادلة ، ودافع منتسكيو عن مبدأ استخدام النبلاء فى مناصب الدولة وعن عدالة توزيع الضرائب على جميع أفراد الشعب بلا استثناء ، ووجوب إلغاء التعذيب والعقوبات القاسية واحترام حرية الفرد .

وكان كتاب الجيل الثانى يعتنقون مبادىء ثورية ويحرضون

الشعب على نقض التشكيلات الاجتماعية والسياسية والدينية القائمة ، وكان روسو يعتبر أن الإنسان صالح بالطبع إلا أن التشكيلات الاجتماعية القائمة في عصره قد حرمته من خيرات الطبيعة وأن حق التملك جائر ، وأن الحكومة أكثر جوراً لأنها تستبد بالناس وتنشر بينهم مبادئ شريرة ؛ فيجب والحالة هذه القضاء على التشكيلات الاجتماعية القائمة وإبادة حق التملك والحكومة المستبدة ثم الرجوع إلى الطبيعة ليتفق الناس حينئذ على شكل من أشكال الحكومة يستحسنه الجميع ويساوى بين الجميع في الحقوق والواجبات ، ويستعاض به عن سلطة الملك بسلطة الشعب ويصبح الوطنيون كلهم سواء، وتخول الحكومة التي يختارها المواطنون السلطة المطلقة لتدير وتنمى ثروة البلاد وتنشر العلوم وتشرف على مبادئ الدين ومعابده . وقد فصل روسو هذه المبادئ الثورية في كتابه الشهير (العقد الاجتماعي). وحينما كان روسو ينشر تعاليمه كان الأستاذ (ديدرو) ينشر موسوعته الشهيرة ، وقد جمع فيها خلاصة المعارف الإنسانية بعنوان الانسيكلوبيديا ، واشترك في تأليفها جماعة من رجال الأدب والعلم والفلسفة ، وهي في ثمانية وعشرين مجلداً ضخما انتشرت في جميع أنحاء أوربا ، ونقلت معها أفكار الفلاسفة الإصلاحيين في إصلاح المجتمع من الوجهات السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية .

وانتشر المذهب الابداعي بفرنسا في أيام نابليون ، وذلك بفضل الأديبة مدام دى ستايل التي كانت تنشر مقالات متتابعة عن الحركة الأدبية الجديدة في ألمانيا .

وفي أوائل القرن التاسع عشر ظهر الكاتب الفرنسي العبقري (شاتوبريان) فغذى الأدب الفرنسي بمؤلفاته القيمة التي حافظ فيها على قواعد المذهب الكلاسيكي إلا أنه اقتبس مادتها من الكتب الدينية والحياة العصرية خلافاً لما كان متبعاً في العصور السابقة .

وحين نبغ شاعر فرنسا الأكبر فيكتور هوغو انتشرت مبادئ المذهب الابداعي التي تحض على تنويع مادة الكتابة ، وعلى نقل مؤلفات الكتاب الكبار في الأمم الأجنبية إلى اللغة الفرنسية . وامتاز الابداعيون عن سواهم بالبحث عن الفرد إلى جانب مجموع الأمة وانصرفوا إلى التوسع في وصف المناظر والأشخاص والأشياء وصفاً دقيقاً حتى باتت كتاباتهم كأنها مرآة صافية انعكست فيها ما كان يقع تحت بصر الكتاب من الأمور والمناظر المختلفة .

وحمل لواء هذا المذهب الجديد من الأدباء والشعراء لامارتين وفيكتور هوغو ، وجورج ساند . ثم تبعتهم طائفة كبيرة من الشبان ، وحين نشر فيكتور هوغو روايته (كرومول) اعتبرت مقدمتها بمثابة منهج للمذهب الابداعي . وأخذ الكتاب يخاطبون الشعب بلغته الدارجة دون أن يتحروا الأسلوب العالي في الإنشاء وبات الإبداعيون يعرفون بأنهم يرمون فيما يكتبونه إلى جعل فن الكتابة أكثر وضوحاً وأقرب إلى مباهج الطبيعة ومناظرها الجميلة بخلاف مبادئ المذهب المدرسي (الكلاسيكي) الجافة المملة .

وفي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قام فريق من الكتاب يناهضون الإبداعيين ويدعون الدفاع عن الحقيقة وعن الطبيعة كما هي دون طلاء أو تزويق ، ثم انصرفوا إلى وصف مشاهد الحياة المختلفة وصفاً دقيقاً مع إسهاب في ذكر الجزئيات وقد دعى أرباب هذه المذاهب بالواقعيين Rèalistes أو الطبيعيين Maturalistes واتصفوا بدقة التعبير ووفرة المفردات اللغوية وجمال الأسلوب . ومن أشهر هؤلاء الكتاب (غستاف فلوبير) و (الكونت دى ليل) و (أميل زولا) .

وفي فجر القرن العشرين ظهرت طائفة من الأدباء والكتاب والشعراء في مختلف الممالك أسدت للبشرية خدمات قيمة في تنويع الأدب العالمي وزخرفته . ومن هؤلاء الأديب الفرنسي بيارلوتي الذي وصف البلاد الحارة والشرقية أحسن وصف ، والروائي النرويجي (ايبسن) الذي درس جهود الأمم الراقية التي تستهدف هدم الأوهام والتقاليد البالية والقضاء على العوائد السخيفة .

وامتاز بأدب القصة كتاب روسيون أشهرهم (تولستوى) و (دستويفسكي) . وظهر في السنين الأخيرة مذهب جديد في الأدب هو المذهب الرمزي (Symbolisme) وقد أهمل أتباعه القيود البيانية القديمة ، ونهجوا مناهج جديدة في النثر والشعر اعتقدوا أنها أخف وقعاً في النفوس وأرق بياناً وأحكم إعراباً عن مختلف المشاعر والأحاسيس ، وترأس هذه الحركة الأدبية بفرنسا الأديب (ملارميه) ثم تبعه كل من (بودلير) و(فرلين) .

رفيق التميمي